

علاقة اللفظ بالمعنى عند المحدثين

The relationship of pronunciation with meaning
according to the modernistsد. اليزيد سلطان¹

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

soltanesama2014@gmail.com

تاريخ الوصول 2020/04/19 القبول 2020/11/03 النشر على الخط 2021/09/30

Received 19/04/2020 Accepted 03/11/2020 Published online 30/09/2021

ملخص

يتناول هذا المقال علاقة اللفظ بالمعنى عند المحدثين، وهي العلاقة التي شغلت الكثير من اللغويين منذ القدم وعلماء اللسانيات حديثاً على وجه الخصوص.

و لقد أعتبر اللفظ والمعنى قضية منذ القدم ، حيث تحدث اليونانيون في أبحاث السفسطائية الخاصة باللغة والخطابة والنحو بوجه أخص عن اللفظ والكلمة ، كما نالت القضية حيزاً هاماً عند العرب

وبدا واضحاً أن الاهتمام بدراسة ثنائية اللفظ والمعنى عند الأوربيين جاء في فترة جد متأخرة عن العرب ، وهو ما حاولت إبرازه في هذه الدراسة ، إلا أن الغربيين تميزوا بالدقة والتحليل في تعاملهم مع هذه الثنائية .

وكان لزاماً قبل الغوص في هذه العلاقة عند المحدثين، أن أعرف اللفظ والمعنى تعريفاً لغوياً واصطلاحياً والاستشهاد ببعض الآراء لمن تميزوا في هذا المنحى كابن فارس والجوهرى والأزهري .. وكذا طرح سؤالاً هاماً مفاده : لماذا أعتبر اللفظ والمعنى قضية؟.

الكلمات المفتاحية: اللفظ، المعنى، المحدثين.

Summary

This article examines the relationship of verbal pronunciation with the meaning according to modernists, a relationship that has occupied many linguists since ancient times and linguists particularly in recent times. The word and meaning was considered an issue since ancient times, as the Greeks spoke in the sophist studies of language, rhetoric and grammar in particular about the word and the pronunciation, and the issue also gained an important space by the Arabs. It seemed clear that the interest in studying the dichotomy and meaning by the Europeans came in a very late period from the Arabs, that is what I tried to highlight in this study, but the Westerners were distinguished by accuracy and analysis in their dealings with this dichotomy. Before diving into this relationship by the modernists, it was necessary for me to define the word and meaning a linguistic and idiomatic definition, and citing some opinions of those who distinguished themselves in this direction, such as Ibn Faris, Al-Jawhari and Al-Azhari .. As well as posing an important question: Why is the word and meaning considered an issue?

Keywords: pronunciation, meaning, modernists.

مقدمة

تعرف الكلمة على أنها وحدة من وحدات اللغة، واللغة مجموعة من القواعد والصيغ، سواء كانت هذه القواعد صوتية أم صرفية أم نحوية، وإن كانت هذه الصيغ قوالب صرفية أم كلمات معجمية، أما الكلام فوحده "المنطوق". أو بعبارة أخرى هي مجموعة قواعد وصيغ صامتة، فأما القواعد فصمتها واضح، وأما الصيغ والكلمات فلأنها في بطون الكتب، ونحن لا نتكلم بالكلمات المفردة ولكن الكلام مركب من دفعات نطقية أو منطوقات قد يكون أحدها مركبا من كلمة واحدة أو من عدة كلمات، ونتساءل هنا هذا المنطوق لنرى خصائصه الرمزية وندرس العلاقة بين هذا اللفظ وبين مدلوله من وجهات نظر مختلفة¹.

لقد اعتبر اللفظ والمعنى قضية منذ القدم، حيث تحدث اليونانيون في أبحاث السفسطائية الخاصة باللغة والخطابة والنحو بوجه أخص، إذ أرجعوا التصور إلى اللفظ.. مما يسر لهم أن يجعلوا من الجدل وسيلة للانتصار على الخصم، ومن الخطابة العلم الأول. والقول الخطابي عندهم لا يقصد منه حسن الكلام فحسب، وإنما هو الحقيقة الجديدة التي قالوا بها نسبة في مقابل الحقيقة المطلقة التي لم يعترفوا بها، ولم يكن إيمانهم بقوة الكلام إلا إيمانهم بقوة الفكر.. ففن الاقتناع هو بعينه فن التفكير.. أي أن السفسطائية قد بحثت في اللغة فأوصلها هذا البحث إلى المنطق.. وقد وصل أرسطو إلى كثير من التصنيفات المنطقية بواسطة دراسته للغة ونحوها، فهو يرى أن الكلام يعبر بدقة عن أحوال النفس أو الفكر، وفي وسع المرء أن يستعين بالصور اللغوية لكي يكشف عن أحوال الفكر.. فاللغة تنظر إلى الألفاظ من ناحيتين: من ناحية وجودها مفردة، فتقسمها إلى أسماء وأفعال وحروف الخ.. ومن ناحية ارتباطها على هيئة جملة، وكذلك الحال في الفكر قسمه إلى الأفكار المفردة وهي التصورات، والأفكار المرتبطة، وهي القضايا أو التصديقات، فالتقسيم المنطقي الأول إلى تصورات وتصديقات قد أخذه أرسطو إذن من اللغة.. ولوحة المقولات هي الأخرى قد أخذها من اللغة في رأي كثير من المؤرخين..

ورث علماء العرب عن اليونان هذا النوع من التفكير فشطروهم إلى فريقين أيضا: أولئك الذين كانوا ينتصرون للفكرة الطبيعية الذاتية، وأشهر من عرف عنهم هذا الرأي من مفكرين عرب "عباس بن سليمان الصيمري" أحد المعتزلة، فيروى أنه كان يقول: "إن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع، وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح" وكان بعض من يرى رأيه يقول: "إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسل ما مسمى "إدغاغ" وهو بالفارسية الحجر، فقال أجد فيه ييسا شديدا وأراه الحجر.

ومع أن معظم اللغويين من العرب لا يأخذون بهذا الرأي ترى كثيرا منهم يربطون في مؤلفاتهم بين الألفاظ ومدلولاتها ربطا وثيقا يكاد يشبه الصلة الطبيعية أو الذاتية. ولعل السر في هذا الاتجاه هو اعتزازهم بتلك الألفاظ العربية وإعجابهم بها وحرصهم على الكشف عن أسرارها وخباياها. لاسيما وأن الدراسة اللغوية العربية لهذه الثنائية قديما ارتبطت بخدمة النص القرآني، والبحث عن مواطن الإعجاز فيه، وحماية لغته من اللحن والانحراف.

¹ تمام حسان. اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب، 1980، ص 116.

وبدا واضحا أن الاهتمام بدراسة ثنائية اللفظ والمعنى (أو ما يسمى علم الدلالة) عند الأوربيين جاء في فترة جد متأخرة عن العرب، وهو ما حاولت إبرازه في هذه الدراسة، إلا أن الغربيين تميزوا بالدقة والتحليل في تعاملهم مع هذه الثنائية.

01 : تعريف اللفظ والمعنى (الدال والمدلول)

1-1/- تعريف اللفظ

أجمع علماء اللغة على أن (لفظ) تعني الرمي من الفم، وهو ما ذهب إليه كبار اللغويين، وأوردته المعاجم العربية المشهورة. ابن منظور في لسان العرب يرى أن اللفظ: أن ترمي بشيء كان في فيك، والفعل لَفَظَ الشيء. يقال: لَفَظْتُ الشيء من فمي أَلْفَظُهُ لَفَظًا رَمِيَتْهُ.

والدنيا لَفِظَةُ تَلَفَظُ بمن فيها إلى الآخرة، أي ترمي بهم. والأرض تَلَفَظُ الميت إذ لم تقبله وَرَمَتْ به، والبحر يَلْفِظُ الشيء: يرمي به إلى السَّاحِلِ¹

'الجوهري' يقدم أولا الدلالة العامة للمادة (لفظ) وهي الرمي من الفم: "لفظت الشيء من فمي لفظته لفظا"، ثم يحدد الدلالة المخصصة إذ يكون الملفوظ من الفم كلاما: "لفظت بالكلام وتلفظت به أي تكلمت به"، وبعدها يعين المفردة بأنها "اللفظ أحد الألفاظ"، ويذكر أن الصيغة ذاتها تستعمل مصدرا للفعل لفظ، وجلي أن اهتمام الجوهري انصب على الناحية الصوتية في المادة ولم يعر هذا الصوت أي انتباه².

أما 'ابن فارس' في المقاييس، فهو يقول إن المادة (لفظ) تعني أولا الدلالة على الطرح المطلق ويغلب أن عليها أن تكون من الفم، ثم يخصص الفعل فنقول "لفظ الكلام يلفظ لفظا"، وبعدها يورد واحدا من المشتقات، ما يحتمله من دلالات "اللافة" فهو الديك ويقال للرحي والجر وظاهر لنا معنى الصوت في الديك والطرح في الرحى للحبوب المطحونة وكذلك في البحر إذ يخرج أشياء كثيرة من جوفه ولا يختلف منحى (المقاييس) كما هو في (الصحاح) إذ لا ربط بين هذا الصوت = اللفظ ومدلوله أي معناه³.

أما 'الأزهري' في التهذيب فيأتي بدلالة الرمي من الفم على أنها الأولى "فاللفظ هو أن ترمي بشيء كان في فيك، والفعل لفظ يلفظ لفظا" ثم يخصص المادة بالكلمات "واللفظ لفظ الكلام"، قال الله عز وجل: "وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".

1- ابن منظور. لسان العرب، بتحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، المجلد 5 (مادة) لفظ

ص، 4053

² الجوهري إسماعيل بن حماد. الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1956 مادة (لفظ)

³ أحمد بن فارس. مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الأحياء الكتب المصرية، القاهرة 1371هـ مادة (لفظ)

وبعد ذلك يورد عبارة كنائية هي (لفظ فلان عصبه) إذا مات وعصبه : ريقه الذي عصب بفيه أي عزي به فييس، ويؤكد الأزهري ما ذهب إليه صاحبها الصحاح والمقاييس ويبحث عن المقابلة بين لفظة ومدلولها ولا يجد في صريح نصوصهم للمادة (لفظ).

1-2- دلالة اللفظ على المعنى :

يدل اللفظ على المعنى من ثلاثة وجوه

- المطابقة:

وهو دلالة اللفظ على تمام المعنى ، كدلالة الدار على جميع الغرف والأبواب والشبابيك والسياح فيها .

- التضامنية :

دلالة اللفظ على جزء من المعنى كدلالة السياج فقط على الدار فلو بعث الدار وقلت السياج ليس من ضمنها لأحتج عليك المشتري.

- الالتزام:

وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن معنى الموضوع ، كدلالة الدواة على القلم فإذا قال لك شخص ائتني بدواة، فإنه يعني القلم ويشترط في الالتزام الذهني عدم التوسط .

1-3- تقسيم اللفظ:

- المختص :

وهو اللفظ الذي ليس له إلا معنى واحد مثل الحديد .

- المشترك :

وهو اللفظ الذي تعدد معناه مثل عين، فقد تعني حاسة النظر أو تعني عين ماء .

- المنقول :

وهو اللفظ الذي تعدد معناه ولكنه مسبوق بالوضع للآخر مع ملاحظة المناسبة بين المعنيين، مثل الصلاة كانت تعني الدعاء ثم نقلت إلى الشريعة الإسلامية فكانت الأفعال من قيام وركوع وسجود .

- الحقيقة والمجاز :

حيث الأول استعمال اللفظ في المعنى الموضوع له الذي قامت بينه وبين اللفظ علاقة لغوية بسبب الوضع، أما المجاز فهو استعمال اللفظ في معنى آخر، كما لو قلت عن شخص أسد فإنك تعني شجاعته.

1-4/ تعريف المعنى

يطلقنا الجوهري بدلالة عامة "عنوت الشيء أخرجه وأظهرته"، ثم يلتفت إلى التخصيص فيورد الفعل اليائي اللام "عنيت بالفعل كذا، أعني عناية، أي أردت وقصدت"، ثم يحدد الصيغة (معنى) أي الفحوى. ومعنى الكلام ومعناته واحد كقول : "عرفت ذلك في

معنى كلامه ، وفي معناه كلامه أي فحواه" ، ونلاحظ هنا أن ربط القصد والإرادة يتم في حالة الجمع (القول والكلام) ، أي مجمل ما يتحدث به المتكلم .

وابن فارس يسرد في أول المادة دلالتها سواء أكانت واوية الاعتلال أم يائية، فثم "القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه، والثاني دال على خضوع وذلّ، والثالث ظهور الشيء وبروزه، ومنه عنيان الكتاب وعنوانه وتفسيره أنه البارز منه إذا ختم"، ويردّف بقوله : "ومن هذا الباب (معنى الشيء) ، ويذكر أن الخليل لم يزد على أن قال في هذا المجال : "معنى كل شيء محتته وحاله التي يصير إليه أمره" ¹ .

ويعود **ابن فارس** ليحدد ما يدل عليه قياس اللّغة بشكل عام أولاً "فالمعنى هو القصد الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه"، ثم يشرحه بعبارة أخرى: يقال: "هذا معنى الكلام، ومعنى الشعر أي الذي يبرز ويظهر في الشيء إذا بحث عنه" ² ثم يشرحه بعبارة أخرى: يقال: "هذا معنى الكلام، ومعنى الشعر أي الذي يبرزه من مكنون ما تضمنه اللفظ". وأخيراً يذكر أن عنوان وعنيان كما يقول الخليل مشتق من المعنى ، وهذا الشرح اللّغوي يظل غائماً فيما يتعلق بالمفردات، فالحديث يدور حول (معنى الكلام) و(معنى الشعر) .

أما **الأزهري** فيذكر نقلاً عن الليث الذي يتصل بالخليل اشتقاق عنوان الكتاب من المعنى، ثم يورد دلالة العناية في المادة (عنى): عناية هذا الأمر يعينني عناية، فأنا معني به ، وقد اعتنيت بأمره يقول عن الليث، ومعنى كل شيء محتته وحاله التي يصير إليها أمره، وبعدها يقول الأزهري: والمعنى والتفسير والتأويل واحد، وهاهنا نجد الإجمال السريع في العبارة الأخيرة الشارحة (المعنى). وإذا ما قلبنا ما أورده هؤلاء المعجميون في المادة المعجمية (كلم) فإننا واجدون أقرب الصور إلى ذلك التقابل بين المفردة ومعناها ، أي ما تدل عليه هي أولاً، والجوهري في الصحاح يميز بين ما تنطق عليه الصيغتان: الكلام والكلم، فالأولى اسم جنس يقع على القليل والكثير، أما الأخرى فلا تكون أقل من ثلاث كلمات ويستشهد باستعمال سيبويه كما إذا قال في الكتاب: "هذا باب علم ما الكلم من العربية لأنه أراد نفس ثلاثة أشياء: الاسم والفعل والحرف وترك ما يمكن أن يقع على الواحد والجماعة، ونحن نفيد الإشارة إلى أفراد الكلمات ههنا، أي الكلمة التي ينبئ **الجوهري** أنها تدلّ كذلك على القصيدة بطولها.

02 : قضية اللفظ والمعنى

ما يميل إليه المرء بطبيعته أن يبدأ من منطلقات بديهية أثناء أعمال ذهن في ما يكون قد قصده، ولا أدل على ذلك من عملية تمثل الدلالة كمعرفة تشمل ما تمثله من دال ومدلول أو لفظ ومعنى، أو لغة وفكر.

¹ الجوهري الصحاح مادة (لفظ)

² المرجع نفسه مادة (لفظ)

فالثنائية القائمة على الاختيار لتقاربها في ما تتضمنه ناتجة عن اتصال العقل بموجودات العالم الخارجي، غير أن المنطلقات البديهية لا يكتفي بها عادة وإلا توقف الذهن عن أي نشاط، إنما تستخدم فقط كقاعدة تدفع المرء إلى توجيه الذهن توجيهات مختلفة تتناسب وطبيعته والموضوع الذي يشغل الذهن أو ذاك .

إن الرغبة في التمدد تصادف أسئلة تتطلب التوصل إلى حقائق يوثق بها العقل في اتصاله بالعالم الخارجي عن طريق الحواس يحدث صوراً تصير من محتوياته، وهذه الصور هي ما يطلق عليه عادة المعاني في ارتباطها بما يمثلها من ألفاظ في اللحظة التي ترتبط فيها بالألفاظ، ومن هنا أمكن التوصل إلى اللفظ الذي لا اعتبار له بدون ما يمثله من معنى قد ارتبط به، ولكن ما وظيفة هذا الارتباط ؟

فتحديد الوظيفة يعود إلى الارتباط الحتمي في طبيعته، بمعنى أن الارتباط يثبت محتويات الذهن (الصور) في ألفاظ لا تغفل منه بغية تجسيدها أي نقلها لإحداث عملية الاتصال بالنجاح أو الفشل على حد سواء. متى يحدث التطابق بين اللفظ والمعنى؟ وما مدى ضرورة ذلك؟ وما يترتب عنه من أسئلة من نوع آخر وهي: ما طبيعة هذه العلاقة؟ هل هي ثابتة أم متغيرة؟ هل يمكن رسم جميع أبعاد المعنى من حيث الشدة والعمق والاتساع طلباً للدقة في انتظار التطابق؟.

كما أن التراث الفكري للإنسانية بخصوص الثنائيات السابقة، ينم عن انشغال كبير يدل على أن هذه القضية يمكن اعتبارها معضلة لم تجد لها حلاً نهائياً بعد؛ وإن كان المفكرون قد قطعوا أشواطاً كبيرة في إزاحة الغموض الذي يلف المسألة العويصة، ولأنها كذلك فقد اختلفت الاجتهادات والآراء فيما يخص الإجابة عن الأسئلة التي سبق طرحها وفقاً للمدارس الفلسفية والفكرية المتعاقبة بداية من المفكرين اليونان إلى يومنا هذا .

لاشك في أن أي قضية على الإطلاق إذا امتدت معالجتها أحقاباً وأحقاباً يحدث التفاوت في الاهتمام بها واختلاف الأداء حولها، كما يدل هذا على أن هناك نمواً وتطوراً ومن ثمة يجب رصده. وللحديث عن اللفظ والمعنى وجب طرح جملة أسئلة أبرزها :

1-2/ لماذا اعتبر اللفظ والمعنى قضية ؟ على أي مستوى؟

- ومن أي منظور ؟ .
- هل القضية جزئية خاصة أم كلية (عامة)؟.
- مستمرة أم منتهية ؟.
- متفق بشأن كونها قضية ؟ أو مختلف فيها ؟.
- هل الآراء متقاربة أم متباعدة ؟.
- ما الفائدة المرجوة أصلاً من اعتبار اللفظ والمعنى قضية ؟.
- هل القضية مزدوجة، أي متعلقة باللفظ والمعنى، أم بأحدهما دون الآخر ؟.
- هل اعتبر اللفظ والمعنى قضية بالنظر إلى الوظيفة التي يؤديها ارتباطهما؟.

- ما وظيفة ارتباط اللفظ بالمعنى؟ (الاتصال، الإبلاغ، تحقيق مختلف الأغراض، التواصل الفكري) النجاح المطلق أم النسبي؟ الفشل وسوء التفاهم.
- هل كان الأمر متعلقا بالتطابق بين اللفظ والمعنى؟ (العوامل المؤثرة المساعدة على حدوث التطابق والتي تحول دون حدوثه)
- ما طبيعة علاقة اللفظ بالمعنى؟ هل العلاقة ثابتة أم متغيرة؟ ما مدى تثبيت المعنى على اللفظ؟
- هل يمكن رسم جميع أبعاد المعنى بوضوح (والوضوح بالنسبة إلى من؟) : أفقيا وعموديا : جوهر الشيء، ماهيته، خصائصه، صفاته من حيث الخصوص والعموم .
- هل الأمر يتعلق بقصور اللغة من جهة ، وينمو الفكر من جهة أخرى، أم بهما معا؟.
- هل الأمر يتعلق بمحدودية العقل (إدراكا أو تجريدا) أم بالحواس ، أم بهما معا؟.
- هل يتعلق الأمر بما اصطلح على تسميته بالدلالة المركزية ، أم الهامشية ، أم بهما؟.

2-2/ علاقة اللفظ بالمعنى

تعريف اللفظ والمعنى أوصلنا إلى أن المنطوق رمز مركب يساق للدلالة على معنى مركب كذلك، وأن تركيب هذه الدلالة يبدو في صورة مزيج من المستويات الدلالية بعضها صوتي والبعض نحوي أو معجمي، أو دلالي ولكل مستوى من هذه المستويات اللغوية نصيب من الدلالة، وتتجه الدراسة إلى جميعها بتحليل يشبه ألوان الطيف الضوئي، وتسمى هذه المستويات مجتمعة باسم الطيف اللغوي .

إن كل دراسة لغوية لابد أن تتجه إلى المعنى، فالمعنى هو الهدف المركزي الذي تصوب إليه سهام الدراسة¹.

ما العلاقة إذا بين الكلمة ومعناها؟ إن معنى الكلمة يختلف عن معنى الجزئي التحليلي من حيث أن معنى الجزئي التحليلي وظيفي، ومعنى الكلمة معجمي والعلاقة بين الجزئي ووظيفته لدى المتكلم نفسه كما ذكرنا، ولكن ما العلاقة بين الكلمة ومدلولها؟ لا يكاد يصدق عليها هذا الوصف إلا عند دراسة العلاقة بين الأفكار والكلمات... فالعلاقة بين الكلمات وبين معانيها علاقة عرفية محدودة²، لكن هذا العرف المعجمي عرف يتضمن صفتين يبدو لأول وهلة أنهما لا تتفقان هما : المعيارية وعدم التخصيص.

فأما المعيارية في إطلاق الكلمة فواضحة وضوحا تاما في تحديد معنى لها لا تتعداه في الاستعمال، ولو أراد إنسان أن يخاطر باستعمالها استعمالا غير عرفي فسوف يجد نفسه وجها لوجه أمام سلطة المعايير المعجمية التي لا ترحم، والتي تتمثل في معظم الأحوال في المعاهد والمؤسسات التي تقوم على رعاية اللغة، ومنها الكليات اللغوية في الجامعات .

أما عدم التخصيص في الدلالة فمرجعه إلى أنه بالرغم من كون العرف هو الذي يربط بين الكلمة وبين معناها، نجده يسمح للكلمة الواحدة بعدد من المعاني، ولهذا كانت الدلالة المقصودة للكلمة بحاجة إلى تحديد العنصر الاجتماعي في الاستعمال بذكر

¹تمام حسان. اللغة بين المعيارية والوصفية ص 117

²المرجع نفسه ص 126

المجريات ونوع المناسبة والأثر على نحو ما لاحظناه في تحليل المنطوق من قبل، فالعرف الذي ربط بين الكلمة ومعناها المعجمي، عرف عام أو عرف تاريخي متوارث (غير اجتماعي)، إن صح هذا التعبير، وإنما يأتيه المعنى الاجتماعي من تحليل المنطوق. فالعلاقة بين المنطوق وبين معناه هي التي يمكن إذا أن توصف بأنها علاقة اجتماعية، وارتبط وصفها بهذا الوصف أن العرف داخل فيه، أي أن وصفها بأنها اجتماعية يدل على كونها عرفية بطريق الدلالة التضمنية¹.

03- علاقة اللفظ بالمعنى عند المحدثين

إن الاعتزاز بالتراث لا يعني العزوف عن الاستضاءة والاستفادة مما توصل إليه البحث اللغوي في العصر الحديث، حيث توسع البحث في مجال الدراسات اللغوية وتعددت المناهج في دراسة هذه العلوم بفضل التغيرات التي فرضتها عوامل النمو الفكري فأصبح علم اللغة "في بحثه جميع ما يبحث يصدر عن مبدأ عام أو مبادئ عامة، ويقفوا منهجا فردا، ويستهدي وسائل معينة، فدراسته مترابطة متكاملة يسودها روح العلم وأسلوبه"². فإذا توجهنا نحو علماء اللغة والأسلوب والنقاد الأوربيين في العصر الحديث، فإن عنايتهم بهذه الثنائية لم تكن أقل من عناية علمائنا، حيث درسوها ووقفوا على مظاهرها.

نحن وإن كنا لا ننكر أن الدراسة اللغوية في العصر الحديث قد أصبحت أكثر تخصصا وعلمية من سابقاتها عند العرب، إلا أن الدراسات اللغوية العربية القديمة في هذا المجال تبقى رائدة، ويبقى للعامل الزمني أثره على التصور الفكري والمنهجي في الدراسات الدلالية الحديثة، فالدراسة اللغوية العربية لهذه الثنائية قديما ارتبطت بخدمة النص القرآني، والبحث عن مواطن الإعجاز فيه، وحماية لغته من اللحن والانحراف، في حين بدأ الاهتمام بدراسة هذه الثنائية (أو ما يسمى علم الدلالة) عند الأوربيين في فترة جد متأخرة عن العرب "فكلمة دلالة (Semantics) ظهرت لأول مرة في الإنجليزية في القرن السابع عشر في كتاب (جون سبنسر) ثم استعملها اللغوي الفرنسي (ميشيل بريل) (M.Breal)، بينما يقول (ليش) إن مصطلح (Semantics) ظهر لأول مرة سنة 1900م في ترجمة (بريل) (M.Breal)، وأن ما قاله (Leach) يحدد تاريخ استعمال (Semantics) الدلالة باعتباره مصطلحا لغويا"³. ويعتبر اللغوي (دو سوسير) رائد الاتجاه البنوي من علماء اللغة المحدثين، الذين درسوا اللغة باعتبارها بناء اجتماعيا متكاملا تلغى فيه الفروق الفردية، وتختصر الجهود في الظواهر العامة، ومعنى آخر فإن (سوسير) درس اللغة باعتبارها نظاما يجمع عناصر ترتبط فيما بينها ضمن علاقات معينة، فهو يشبه الدوال والمدلولات، أو الألفاظ والمعاني بالجسم الإنساني الذي يتكون من جسد وروح، أو بالماء الذي يتكون من أوكسجين وهيدروجين فلو أخذ كل عنصر على حدة لما كانت لأيهما خصائص الماء، يقول (سوسير) "لا يتصور وجود الكيان اللساني إلا باجتماع الدال والمدلول وترابطهما.

¹ تمام حسان اللغة بين المعيارية والوصفية ص 127

² محمود السعرا علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية بيروت. ص: 19.

³ أحمد نعيم الكراعي علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، ص: 89

فإذا تناولنا عنصرا واحدا من هذه العناصر اختفى الكيان وتلاشى، وبدل أن نحصل على شيء مشخص لم نجد أمامنا إلا تجريدا خالصا. ولذلك فنحن نخشى في كل وقت ألا ندرك غير جزء واحد من هذا الكيان، بعد أن سبق إلى وهما أننا أحطنا به في كليته"¹. إن ما يريده (سوسير) هنا أن الكل ملموس، أما الأجزاء التي يتألف منها الكل، فهي مجردة إذا عدّ كل جزء في ذاته، ومعنى آخر فإن عناصر التركيب إذا انفصلت عن بعضها لا تعود تعبر عن خصائص المركب، وهو بذلك يشير إلى اتحاد الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) وعدم الفصل بينهما. وفكرة التأليف بين اللفظ والمعنى وعدم الفصل بينهما واعتبارهما شيئا واحدا متلازما ملازمة الروح للجسد قد نادى به كثير من علماء العرب القدماء، وفي طليعة هؤلاء ابن رشيق بقوله "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته"². وكذلك العتايي بقوله "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرا أو أخرت منها مقدما، أفستت الصورة وغيّرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل"³.

ويعد اللساني فردناند دي سوسير من أشهر المعارضين لأصحاب الصلة بين الألفاظ والدلالات، إذ يراها اعتباطية لا تخضع لمنطق أو نظام مطرد. مع اعترافه بتلك الصلة في الألفاظ التي تعد بمثابة الصدى لأصوات الطبيعة، يقرر أنها من القلة في اللغات، ومن الاختلاف والتباين باختلاف اللغات الإنسانية، بحيث لا يصح أن تتخذ منها أساسا لظاهرة لغوية مطردة أو شبيهة بالمطردة، هي إذن في رأيه مجرد ألفاظ قليلة تصادف أن أشبهت أصواتها دلالاتها.⁴

والأمر الذي لم يبد واضحاً في علاج كل هؤلاء الباحثين هو وجوب التفرقة بين الصلة الطبيعية والذاتية والصلة المكتسبة، ففي كثير من ألفاظ كل لغة نلاحظ تلك الصلة بينها وبين دلالاتها، ولكن هذه الصلة لم تنشأ من تلك الألفاظ أو تولد بمولدها، وإنما اكتسبتها اكتساباً بمرور الأيام وكثرة التداول والاستعمال. وهي في بعض الألفاظ أوضح منها في البعض الآخر، ومرجع هذا إلى الظروف الخاصة التي تحيط بكل كلمة في تاريخها، وإلى الحالات النفسية المتباينة التي تعرض المتكلمين والسامعين في أثناء استعمال الكلمات، فإذا تصادف أن عنى أحد المتكلمين بأصوات لفظ من الألفاظ، واسترعى انتباهه أكثر من غيره، لا يلبث أن يعقد الصلة بينه وبين دلالاته، ويتصور نوعاً من المناسبة بين تلك الأصوات وما تدل عليه، ويحاول نقل شعوره إلى غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا. فالألفاظ هي في الواقع اصططنعها الإنسان للتعبير عما يخطر في ذهنه، غير أنها اكتسبت مع الزمن صفة ليست في غيرها من الرموز الاصطلاحية، ومن المجازفة أن ينظر إلى تلك الألفاظ الآن على أنها مجرد رموز، فقد ارتبطت بالفكر الإنساني ارتباطاً وثيقاً وأصبح من الصعب أن نتصور أي نوع من التفكير بغير هذه الألفاظ.

¹ فردناند دي سوسير. محاضرات في علم اللسان العام، ترجمة عد القادر قنيني، إفريقيا الشرق 1987م. ص 130

² ابن رشيق (الحسن بن رشيق القيرواني، ت. 456هـ). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة. 1401هـ/1981م. 1/124.

³ أبو هلال العسكري الصناعتين المكتبة العنصرية - بيروت - لبنان، 1419هـ - 1998م، ص 107

⁴ إبراهيم انيس. دلالة الألفاظ، ص 71

وإذا توجهنا نحو المدرسة الاجتماعية السياقية التي حمل لواءها اللغوي الإنجليزي فيرت Firth وجدنا أنه يؤكد على الوظيفة السياقية للغة، حيث نظر إلى السياق على أنه جزء أصيل في عملية التحليل اللغوي، واعتبر دراسة البنية اللغوية مقطوعة عن سياقها ذات تأثير واضح على تعدد المعنى وغموضه، وإذا كان الأمر كذلك فإن دراسة معاني الكلمات والألفاظ تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، سواء كانت سياقات لغوية أو ثقافية أو عاطفية، حيث يقول: "إن الوحدات الحقيقية للغة ليست الأصوات ولا طريقة الكتابة أو المعاني، ولكنها العلاقات التي تمثلها هذه الأصوات والأساليب والمعاني... أي العلاقات المتبادلة أو المشتركة داخل السلسلة الكلامية والصيغ الصرفية والنحوية"¹ ولا بمعرفة الجملة ذاتها والسياق الذي قيلت فيه. فمثلاً إذا أخذنا كلمة good الإنجليزية (هي كلمة حسن بالعربية)، فإن لها معاني متعددة حسب السياق اللغوي الذي تقع فيه "إذا وردت في سياق لغوي مع كلمة (رجل) كانت تعني الناحية الخلقية، وإذا وردت وصفا لطبيب، كانت تعني التفوق في الأداء وليس الناحية الأخلاقية، وإذا وردت للمقادير، كان معناها الصفاء والنقاوة"². وهكذا فحسب Firth، فإن كل لفظ يحيل على معنى ما، وهذا المعنى يظل غامضاً إلى درجة ما، ولا يتضح إلا عن طريق ملاحظة استعماله في سياق معين، والواقع أن الاهتمام بالمقام أو السياق ضروري للوصول إلى المعنى الدقيق، لأن الكلمة إذا أخذت منعزلة عن السياق لا معنى لها ولا قيمة، وهي محتملة لصنوف من المعاني.

على أن فكرة دلالة السياق ليست وليدة علم اللغة الحديث، وإنما هي فكرة قديمة عرفها علماء المسلمين وفطنوا إليها وسبقوا الأوربيين إليها بعدة قرون، ونحن لا نزعم أن علماءنا الأفاضل كان لهم وعي نظري كامل بجميع القضايا اللغوية، إلا أن متابعة أعمالهم متابعة متأنية ودقيقة تكشف عما كان لهم من سبق وريادة في مجال الدراسات اللغوية، إذ أدركوا أهمية دلالة السياق في فهم المعنى. يقول السكاكي: "لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يبين مقام الشكاية، ومقام التهنة يبين مقام التعزية، ومقام المدح يبين مقام الذم، ومقام الترغيب يبين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يبين مقام الهزل... وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادقة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"³.

ولننظرنا إلى ما قاله الأصوليون لوجدناهم من أكثر البيئات العلمية وعياً وفهماً لما لدلالة السياق من أثر في إجلال المعنى، فقد حرصوا على استقراره وجوه الدلالة وعلاقة دلالة الألفاظ بعضها ببعض مضافاً إلى ذلك إرادة المتكلم وقصده، فاللغة حسب الأصوليين إنما هي ظاهرة اجتماعية نشأت تلبية لحاجات الإنسان في حياته الاجتماعية⁴.

وإذا توجهنا نحو بيئة النقاد المحدثين، فإننا نجد أنهم قد بحثوا في العلاقة بين اللفظ ومعناه وأدركوا على نحو جيد أهمية المعاني وشدة ارتباطها بالألفاظ، فالمعنى يستلزم اللفظ، واللفظ يستدعي معناه، وهذا ما يؤكد الناقد الفرنسي (دي جورمون) إذ يقول: "إن

¹ Papers in linguistics Firth نقلاً عن علم الدلالة بين النظرية والتطبيق: ص 91.

² أحمد مختار عمر علم الدلالة، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الثانية. 1988م. ص: 69-70

³ السكاكي: يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، ت. 626هـ. مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. الطبعة الأولى

1403هـ/1983م. ص: 168-169

⁴ طاهر سليمان حمودة دراسة المعنى عند الأصوليين: ص 225

الأسلوب والفكر شيء واحد، وإن من الخطأ محاولة فصل الشكل عن المادة"¹. وهذا المنهج الذي اختطه (دي جورمون) هو نفسه الذي ارتضاه نقاد آخرون غربيون وعرب، يقول إبراهيم سلامة: "فالمعنى يستلزم اللفظ، واللفظ الدال على معناه لا يفهم وحده فهماً تجريبياً، وإنما يستدعي غيره، وسواء جلب اللفظ المعنى، أو جلب المعنى اللفظ، فالتلازم مطلب في كل تعبير منطقي"². ويلخص 'جسبرسن' آراء المحدثين في الصلة بين الألفاظ والدلالات فيعرض أولاً لمقال "همبلت" الذي يزعم فيه أن اللغات بوجه عام تؤثر التعبير عن الأشياء بواسطة ألفاظ أثرها في الأذان يشبه أثر تلك الأشياء في الأذهان، أي إن "همبلت" كان من أنصار المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والدلالات، وقد عارضه في هذا الرأي "مدفيج" وساق له كثيراً من الكلمات التي لا تتضح فيها هذه الصلة، غير أن "مدفيج" في رأي جسبرسن كان متجنباً على "همبلت" لأنه لم يدع أن مثل هذه الظاهرة تطرد في كل كلمات اللغة، لأنه بين في ثنايا هذا الرأي أن الكلمات

بدأت واضحة الصلة بين أصواتها ودلالاتها ثم تطورت تلك الأصوات، أو تلك الدلالات وأصبحت الصلة غامضة علينا.³ ويؤكد لنا "جسبرسن" أن الألفاظ التي تعبر عن الصوت الطبيعي قد تنتقل وتصبح معبرة عن مصدر هذا الصوت، وذلك كأن يصبح الزئير اسماً من أسماء الأسد، ففي أوروبا طائر يظهر في الربيع ويصيح (كوكو)، وكان من الممكن أن تقنع هذه اللفظة بالتعبير عن صوت هذا الطائر، ولكنها تستعمل الآن للطائر نفسه. كذلك قد تسمى حركات الإنسان بما ينبعث عنها من أصوات، فصوت المشي قد يطلق على المشي نفسه. والصنع مثلاً كلمة بدأت فيما يبدو بمثابة صدى لوقع اليد على الوجه، فهي حكاية صوت لتلك الحركة الإنسانية، ثم أصبحت تعبر عن نفس الحركة.

ويبدو جلياً أن هذا النوع من الألفاظ يكثر في اللغات البدائية، أو بين الأمم المتخلفة، فقد لاحظ بعض الباحثين في لغات وسط إفريقيا أن الفعل الواحد قد يوصف بكثير من الألفاظ المعبرة عن حالاته المتعددة. ويشير "جسبرسن" كذلك إلى ما عرف عند علماء العربية من أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فحين نقارن بين "صر الجندب" و"صرصر الجندب" مثلاً، نرى أن صيغة "صرصر" تفيد تكرير الصوت، وحين نقارن بين "كسر" و"تكسر" نرى أن التضعيف في الصيغة الثانية قد زاد عن دلالتها.⁴

يعتبر 'أفرايم نعوم تشومسكي' (Avram Noam Chomsky) من الذين أحدثوا ثورة خاصة بمؤلفه الهام "البناء السياقي" الذي أحدث ثورة في علم اللغويات الحديث، واعتبر التجاوز الأساسي للبنىوية في مجال اللغويات. ومن أهم أعماله الأخرى في هذا المجال سنجد "اللغة والعقل" و"بعض جوانب نظرية السياق" و"القواعد والتمثيلات" و"دراسات سيمانطيقية في النحو

وتتسم نظرية تشومسكي اللغوية المعروفة باسم النحو التوليدي أو التحويلي أو الكوني بعدة سمات أهمها: أن النحو عند

¹ وليم فان أوكونور النقد الأدبي، ترجمة صلاح أحمد إبراهيم، دار صادر بيروت لبنان. 1960م ص: 102.

² إبراهيم سلامة بلاغة أرسطو بين العرب واليونان: مكتبة الأنجلو المصرية. 1952م ص: 380.

³ إبراهيم انيس. دلالة الألفاظ. ص 68

⁴ المرجع نفسه ص 69

تشومسكي هو مجموعة القواعد التي تُمكن الإنسان من توليد مجموعة من الجمل المفهومة ذات البناء الصحيح. وينتقد تشومسكي عملية الكفاءة الرصدية التي اتسم بها النحو التقليدي؛ أي القدرة على الرصد الكمي للبيانات دون محاولة تقديم نموذج تفسيري يفسر قدرة المتكلم مستخدم اللغة وحده اللغوي. فتشومسكي يفرق بين القدرة التي هي ملكة معرفة اللغة، حيث يمكن للفرد إنتاج عدد غير محدود من الجمل وفهمه، وتحديد الخطأ، وتلمس الغموض الكامن في الناتج اللغوي، وبين الأداء الذي هو عملية استخدام هذه القدرة في نسق محدد. وينعي تشومسكي على التقليديين اهتمامهم بالأداء وانصرافهم عن القدرة. ويشابه تشومسكي هنا اللغويين الإسلاميين في صدر الإسلام مثل: ابن جني والعسكري والجرجاني في رؤيتهم للغة على أنها هبة من الله للإنسان، حيث يرى تشومسكي أن لغة الفرد العادية هي عملية إبداعية، وأن كل كلام هو تجديد في ذاته، فاللغة ملكة إنسانية، وهي ملكة تؤنس الإنسان أيضاً.

وجه اعتراض "تشومسكي" على الألفاظ البنيوية، هو أنها لم تول خاصية يعتبرها أساسية من خواص اللغة الاهتمام الكافي، وهي خاصية الإبداعية، أي إمكانية المتحدث-المستمع- على إنتاج وتأويل كافة جمل اللسان، ولا شيء غير هذه الجمل التي لا حدود لها، وذلك استناداً على عدد محدود من المقولات والقواعد، التي تشكل كفاءة ذلك المتحدث/ المستمع؛ وإيضاحها فإن القواعد التوليدية تستبدل:

- المفهوم الساكن للغة بمفهوم آخر حركي.
- إدراك الوقائع فقط على مستوى مقطوعات المورفيمات والفونيمات، بفرضية مجموعة من المستويات الواقعة تحت مجموعة من قاعدات التحويل للانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية.
- الوصف البنيوي لمادة بحث محددة، بسلسلة تصورية على شكل اشتقاقات ذات نسق رياضي (ومن ثم افتراضي/ استنتاجي) من العمليات المنظمة تكون نتيجتها عبارة ما.

إن مفهومي (المستوى) و(العملية) اللذين يشكلان جزءاً من النظام المفهومي الأساسي للقواعد التوليدية نجدهما في بعض نظريات الملفوظية، لكن هذا التماثل في المصطلح لا يعني أن "تشومسكي" يعتمد منظوراً ملفوظياً.

أ- "المتحدث/ المستمع المثالي" لا نتصوره أبداً كموضوع للملفوظية ترتبط به توجيهات مختلفة قادرة على التأثير الحاسم في معنى الملفوظ. إنه تجريد صرف، ونوع من الآلة التي تتحقق من قواعدية الجمل، وهو غير قادر على الدخول في نسق موقعي أو اجتماعي أو نفسي أو تحليلي نفسي.

ب- المنظور الملفوظي - وهذا هو المهم - يتميز، قبل كل شيء، بموقف أقل تعقيداً من موقف البنيوية في تحليل المعنى، أي أنه يتميز بفهم موسع لعلم المعنى. عند هذا المستوى نرى أن الألفاظ الـ "تشومسكية" لا تتجاوز الألفاظ البنيوية على الإطلاق. فأعمال كاتز وفودور التي عاد "تشومسكي" إليها في الجزء الثاني من نظريته، كما عرضها في كتابه: (أوجه النظرية التركيبية) لا تمثل

أبداً سوى الاندماج في النموذج التوليدي للتحليل المدلولي والتحليل الدلالي، أبعد ما يكون عن أن يكفي لإيضاح معنى الإنتاج اللغوي الحقيقي، أي ذلك الإنتاج غير المنفصل سطحياً عن شروط الإنتاج.¹

في هذه الحالة، فإن اهتمام التوليديين في ربط المعجم بعلم التراكيب (وهو علم لم يكن مؤسساً عند البنيويين) قد يمكن اعتباره بمثابة نقلة ظاهرة. لكن، في واقع الأمر، هذا الاهتمام يترجم بإعداد هيكل للحل المعجمي وفي العادة يظهر هذا الهيكل بشكل زائد أو يبدو مفتعلاً.

ج - نعتز أن "تشومسكي" في أحدث مراحل نظريته قد قام بتعديل وجهة نظره حول تكوين المعنى ليقدم في نموذجه مكاناً لظواهر مثل: التخمين الجاهز، والتركيز، وتحويل مكون الجمل إلى موضوع بارز للقارئ (إظهار)، ومن ثم الاقتراب بهذا النمط من الإشكالية التي تمحنا؛ لكن - من وجهة نظره - فتلك إضافات لا تحوّر النظرية التي أنشأها منذ سنة 1957 والقائلة ب: أنه من المفضل وضع البنية التركيبية في أبعد نقطة تنطلق منها الاشتقاقات التي تؤدي إلى العبارة.

لهذا ترانا نرتد عائدين إلى "تشومسكي" بشكل خاص، حينما نقرأ في مقدمة كتاب برنار بوتيه (الألفاظ العامة) ما يلي: "إن ندهش من المكانة التي آل إليها علم المعنى، فمن غير المعقول أن استطاعت بعض المدارس اعتبار علم التراكيب أساساً لاهتماماتها، لكن الحسن السليم هو الذي انتصر في حقيقة الأمر، هكذا كانت نظرة اللغويين المحدثين لعلاقة اللفظ بمعناه، فهي علاقة عضوية حتمية ملتزمة، فاللفظ والمعنى حقيقتان متحدتان، فالعناية بأحدهما عناية بالآخر، والاهتمام يجب أن يقسم بالتساوي بينهما إذ ليست منزلة المعنى دون منزلة اللفظ، والعكس صحيح. وفيما نرى، فلعل 'ستيفن أولمان' الذي شغل منصب أستاذ علم اللغة بجامعة ليدز بإنكلترا قد صاغ دلالة الألفاظ بإطار موجز واضح، فاللفظ عنده: الصيغة الخارجية للشكل، والمدلول: الفكرة التي يستدعيها اللفظ.²

وقد أوجد بهذا مقارنة سليمة بين المصطلحين، فلاحظ أن بينهما علاقة متبادلة، فليس اللفظ وحده هو الذي يستدعي المدلول، بل إن المدلول أيضاً قد يستدعي اللفظ، وهذه العلاقة المزدوجة هي القوة التي تربط الدال بالمدلول، أي الصيغة الخارجية للكلمة بالمحتوى الداخلي لها.

قد أيد هذا المذهب اللغوي الفرنسي (أندريه مارتينييه)، فذهب إلى أن اللفظ لا يمكن له أن يمثل الوحدة العضوية الصغرى في الكلام، لأن اللغة الإنسانية تقوم بإزاء تلفظ مزدوج مركب من اللفظ المكوّن من مجموعات صوتية ومن المدلول في إعطاء المعنى، فاللفظ دال، ومعنى ذلك اللفظ مدلول.

¹ / جان سيرفوني مجلة واتا للترجمة واللغات، صناعة اللفظ تأليف ترجمة د: هاني حجاج عدد جانفي 2001 وهي مجلة علمية إلكترونية فصلية تصدر عن الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب.

² Martinet, Eléments de Linguistique General, Paris. 1970. p.16

ومضافاً إلى اقتناعنا بهذا المنهج، فإن المحدثين من علماء الدلالة الأوروبيين، مقتنعون أيضاً ولكن بصعوبة تحديد الكلمة في شتى اللغات، غير أنهم مجمعون أن الأساس الصوتي وحده لا يصلح لتحديد معالم الكلمات، وأنه لا بد أن تشترك معه الكلمة أو وظيفتها اللغوية ليتمكن تحديدها.

وقد اتضح للعالم المشهور ساپير (sapir) أن تحليل الكلام إلى عناصر أو وحدات ذات دلالة، يقسم هذا الكلام إلى مجموعات صوتية منها ما ينطبق على الكلمة، ومنها ما ينطبق على جزء من الكلمة، ومنها ما ينطبق على كلمتين أو أكثر. وطبيعي أن مفهوم ساپير لهذه الدلالة ينطبق على الأحداث والأسماء والحروف، ودلالة الإضافة في وحدة المضاف، والمضاف إليه مما يعني تغييراً حقيقياً بين مفهومه ومفهوم القدامى العائلين : « الكلمة قول مفرد، أو لفظ مفرد »¹ فهل 'أل' التعريف من هذا القول؟ وهل الباء كحرف جر من هذا اللفظ؟ وهل الضمائر المتصلة كالتاء منه على وجه ما؟ وهي مع اندماجها في الأفعال... هل تشكل قولاً مفرداً أم قولين؟ أو لفظاً مفرداً أم لفظين؟

إن استقلالية الألفاظ في اللغة العربية تعني الفصل في الدلالة، فلكل من الأفعال والأسماء والحروف والضمائر دلالات خاصة. ومع هذا التباين، فإن الفهم النحوي للكلمات عند القدامى يختلف عن المفهوم النقدي والبلاغي عندهم في الدلالات. على أن المحدثين من الأوروبيين يختلفون في أولوية الدلالة بين اللفظ والمعنى وينقسمون في ذلك إلى مدرستين نقديتين؛ « المدرسة التحليلية » التي ترى أن المعنى يمكن تحليله إلى عناصره ووحداته الأساسية، و« المدرسة العملية » التي ترى أن الكلمة ترمز إلى فكرة أو إشارة .. وأخيراً إلى مجمل المعنى العام في الجملة أو التعبير، وتدرس هذه المدرسة الكلمات ذاتها مرتبطة بحدثها وعلاقتها العلمية مع غيرها دونما اهتمام مباشر بالمعنى قبل الكلمة.

وهذه النظرة التي ترجمها لنا عن الأوروبيين الدكتور عناد غزوان يحللها بقوله: « واختلاف المدرستين يعود إلى مدى اهتمامهما بالقارئ، السامع قبل المتكلم، أو بالمتكلم قبل السامع، فعلاقة اللغة بالفكر ليست من القضايا البسيطة لتداخلهما من جهة، لأنهما روح الحضارة الإنسانية من جهة أخرى، فما ينشأ عن هذه العلاقة من غموض أو وضوح من إشارة أو رمز، من صواب أو خطأ، من حقيقة أو مجاز يتوقف على قدرة اللغة في توصيل فكرها إلى الآخرين وفي الإفصاح عن تلك التجربة الأدبية.

ومهما يكن من أمر فإن طبيعة البحث الدلالي في نظرية المحدثين من عرب وأوروبيين لا تعدو إطار التعريف لكل من الدال والمدلول وعلاقة الألفاظ والمعاني، ومشاركة هذه العلاقة في إرساء دعائم الحضارة الإنسانية ضمن إشارات ثقافية ولمسات منهجية بأسلوب تغلب عليه السلاسة حيناً، والنعومة حيناً آخر، والتعقيد في المؤدى ثالثاً، وتزاحم الألفاظ، وتغاير التعبيرات، وتراكم الصيغ بين هذا وذاك في كثير من الأحيان.

وإذا كان أمر ثنائية اللفظ والمعنى عند المحدثين على ما وصفنا، فإن ما يجب الاعتراف به، هو أصالة علماء العرب المسلمين وسبقهم في دراسة هذه الثنائية، وتأسيس نظرية لغوية تشهد بعمق العقل العربي، وقولنا هذا لا يعني أننا ممن يلتمسون النظريات

¹ إبراهيم أنيس . دلالة الألفاظ : ص 42 وما بعدها.

الحديثة في التراث، أو يبحثون لها عن أصول بدعوى السبق والريادة، ولكن النظرة الموضوعية النزيهة إلى ما كتبه هؤلاء العلماء حول هذه الثنائية، وكيف تصوروها، وكيف رصدوا مظاهرها، ثم مقارنتها بما قدمه علماء اللغة المحدثين، تثبت أنه لا تكاد توجد قضية لغوية حديثة أو معاصرة لم تتوقف عندها الدراسات العربية الإسلامية قديما. والغريب في الأمر أن كثيرا من الدارسين العرب المحدثين يديرون ظهورهم لهذا التراث العظيم كله، ويقبلون على ما قدمه علماء اللغة المحدثين في أوروبا وأمريكا من مفاهيم ومصطلحات، معتقدين أن الحداثة لا تتم إلا بتحقيق القطيعة المعرفية مع التراث، والموقف الصحيح يفرض علينا الرجوع إلى التراث والإقبال عليه فهما ودراسة وتحليلا، مع الاستفادة من منجزات الدراسات اللغوية الحديثة، والاستفادة من مناهجها ومفاهيمها ومضامينها، وحتى كبار اللغويين المحدثين في الغرب أبانوا أن العرب والمسلمين درسوا وتعمقوا في علاقة اللفظ والمعنى واعترفوا بفضلهم على الإنسانية قاطبة في هذا المجال.

خاتمة

لقد بدا واضحا من خلال هذه الدراسة أن اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما كان محل اهتمام الكثير من الباحثين واللغويين منذ القدم، وتطور هذا البحث لدى المحدثين حتى تميّز الكثير منهم في تحديد هذه العلاقة.. وقد توصل هذا البحث إلى جملة من النتائج أبرزها .

* إن تعريف اللفظ والمعنى أوصلنا إلى أن المنطوق إذا رمز مركب يساق للدلالة على معنى مركب كذلك، وأن تركيب هذه الدلالة يبدو في صورة مزيج من المستويات الدلالية بعضها صوتي والبعض نحوي أو معجمي أو دلالي، ولكل مستوى من هذه المستويات اللغوية نصيب من الدلالة.

* أن الاهتمام بدراسة ثنائية اللفظ والمعنى (أو ما يسمى علم الدلالة) عند الأوروبيين جاء في فترة جد متأخرة عن العرب، وهو ما حاول إبرازه في هذه الدراسة، إلا أن الغربيين تميزوا بالدقة والتحليل في تعاملهم مع هذه الثنائية.

* أن الدراسة اللغوية في العصر الحديث قد أصبحت أكثر تخصصا وعلمية من سابقتها عند العرب، إلا أن الدراسات اللغوية العربية القديمة في هذا المجال تبقى رائدة.

* الدراسة اللغوية العربية لهذه الثنائية قديما ارتبطت بخدمة النص القرآني، والبحث عن مواطن الإعجاز فيه، وحماية لغته من اللحن والانحراف، عكس ما سجل لدى الباحثين واللغويين الغربيين حديثا .

* توصل البحث إلى أن دي سوسير يرى أن الكل ملموس، أما الأجزاء التي يتألف منها الكل، فهي مجردة إذا عد كل جزء في ذاته، وبمعنى آخر، فإن عناصر التركيب إذا انفصلت عن بعضها لا تعود تعبر عن خصائص المركب، وهو بذلك يشير إلى اتحاد الدال والمدلول (اللفظ والمعنى) وعدم الفصل بينهما. وفكرة التأليف بين اللفظ والمعنى وعدم الفصل بينهما واعتبارهما شيئا واحدا.

* فكرة ملازمة اللفظ للمعنى كملازمة الروح للجسد قد نادى به كثير من علماء العرب القدماء، وفي طليعة هؤلاء ابن رشيق بقوله "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه ويقوى بقوته.

* المدرسة الاجتماعية السياقية التي حمل لواءها اللغوي الإنجليزي فيرت Firth تؤكد على الوظيفة السياقية للغة، حيث نظر إلى السياق على أنه جزء أصيل في عملية التحليل اللغوي، واعتبر دراسة البنية اللغوية مقطوعة عن سياقها ذات تأثير واضح على تعدد المعنى وغموضه، وإذا كان الأمر كذلك فإن دراسة معاني الكلمات والألفاظ تتطلب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، سواء كانت سياقات لغوية أو ثقافية أو عاطفية.

ويظل اللفظ والمعنى قضية بحاجة دوماً إلى دراسة وتعمق كبيرين، باعتبارهما ثنائية مهمة ليس في المجال اللغوي فحسب، بل للتواصل الاجتماعي، فهل يمكن أن نتخيل مجتمع بلا منطق ولا دال ومدلول .

المصادر والمراجع:

- 1- أحمد بن فارس .مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الأحياء الكتب المصرية القاهرة 1371هـ 1952 م
- 2- أحمد مختار عمر علم الدلالة، عالم الكتب القاهرة، الطبعة الثانية. 1988.
- 3- /أحمد نعيم الكراعي علم الدلالة بين النظرية والتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، الطبعة الأولى. 1413هـ/1993م.
- 4- أبو هلال العسكري الصناعتين المكتبة العنصرية - بيروت - لبنان، 1419هـ -1998م
- 5 - ابن منظور .لسان العرب ،تحق عبد الله علي الكبير ،محمد أحمد حسب الله ،وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف، القاهرة.
- 6- إبراهيم سلامة بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ، مكتبة الأنجلو المصرية. 1952م.
- 7- ابن رشيق (الحسن بن رشيق القيرواني، ت. 456هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت لبنان. الطبعة الخامسة. 1401هـ/1981م.
- 8 تمام حسان. اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة الدار البيضاء 1980 .
- 9 - جان سيرفوني مجلة واتا للترجمة واللغات ، صناعة اللفظ تأليف ترجمة د:هاني حجاج عدد جانفي 2001 وهي مجلة علمية إلكترونية فصلية تصدر عن الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب.
- 10- الجوهري إسماعيل بن حماد الصحاح لأبي نصر تحقيق أحمد عبد الغفور العطار لقاهرة 1956 دار الكتاب العربي مادة(لفظ)
- 11-سكاكي: يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، ت. 626هـ. مفتاح العلوم تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان. الطبعة الأولى 1403هـ/1983م.
- 12- طاهر سليمان حمودة دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية-جمهورية مصر العربية-
- 13-فردناند دي سوسير .محاضرات في علم اللسان العام، ، ترجمة عد القادر قنيني، إفريقيا الشرق 1987م.
- 14 محمود السعران علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية بيروت.
- 15 وليم فان أوكونور النقد الأدبي، ، ترجمة صلاح أحمد إبراهيم، دار صادر بيروت لبنان. 1960 م .

16- Martinet, Eléments de Linguistique General Armand Colin. , Paris. 1960